أهم التحديات المعاصرة في طريق الدعوة الإسلامية

د. إبراهيم نويري*

مقدمة واستهلال

الحمد لله وحده نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.. مَن يهده الله فلا مضلّ له.. ومَن يُضلل فلا هادي له.. الحمد لله وليّ الصالحين.. والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وإمام المتقين، نبيّنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الدعوة إلى الإسلام وهدي رسول اللهِ ﷺ، وإصلاحَ الأوضاع العامة بهديه وتعاليمه السمحة الراشدة المشرقة، أمرٌ لا خَلاف في وجوبه بين المسلمين قديماً وحديثاً، فقد أجمع أهلُ الإسلام قاطبة عبر كلّ العصور، على وجوب الدعوة وتبليغ الرسالة وبسط الهدي النبوي الكريم، كي يكون أنموذجا يُحتذى في سلوكات المسلمين، وفي واقعهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية. ولكي يكون صورةً واقعية -من خلال تجسيده في السلوك- تمهّد السبيل لانتشار دين الله في كلّ آفاق المعمورة.

ولقد شاءت إرادةُ الله تعالى أن تكون أمةُ الإسلام خير الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110] ... كما شاءت إرادة الله عزّ وجلّ أن تكون هذه الأمة شاهدةً على غيرها، من

* جامعة الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر.

منطلق شرف هذه الرسالة الخاتمة التي تناهت إليها وإلى مقاصدها الجليلة حقيقةُ الدين ولُبابُ الفضائل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

لذلك كان من الواضح الجلي، بل البدهيّ لدى كلّ مسلم أن التبليغ الذي أمر اللهُ تعالى به رسوله المصطفى ﷺ، في قوله عزّ وجلّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67] ... قد تلقفته أمتُه من بعده -ولها فيه أسوةٌ حسنة وأنموذجٌ يُحتذى- حيث أدركت هذه الأمة منذ الوهلة الأولى بأن هذه الدعوة التي صرّح القرآن المكي بأنها للناس كافةً -منذ بداية التنزيل- لا تنتهي بوفاة المصطفى ﷺ، وانقطاعِ الوحي الخاتم. بل هي بلاغٌ عام إلى يوم القيامة، بدأ بما صدع به النبيّ صلواتُ اللهِ وسلامه عليه في بطحاء مكة، ثم حمل لواءَ التبليغ ذلك الجيلُ الفريد الذي رباه نبيُّ الهدى ﷺ، ثم جاء بعد ذلك الجيلِ جيلُ التابعين، ثم جيلُ أتباع التابعين. ثم جاءت بعدهم أجيال متعاقبة.. فترك كلُّ جيلٍ من أجيال هذه الأمة بصمته وأثره في مسيرة الدعوة والبلاغ والتمكين لدين الله والاجتهاد في بيان مراد الله من الخلق ومقاصد شرعه الحنيف.

وهذا البحث يهدف إلى بيان حقيقة الدعوة الإصلاحية ومفهومها، وأبرز التحديات والعقبات والمشكلات التي تعترض سيرها، وتؤثر بصورة أو بأخرى في تراكم الجهود التي تُبذل في سبيل التمكين لها، وإمالة الناس لمنهج الله الأقوم وهدي رسوله ﷺ، الذي تركَ الأمةَ عليه ليله كنهاره لا يزيغ عنه إلا هالك كما ورد في الأثر النبوي الشريف.

ولعله من المناسب قبل التعرّض لبيان أهم التحديات التي تواجه الدعوةَ الإسلامية في هذه الانعطافة التاريخية من حياة أمتنا، أن نقف وقفةً قصيرةً أمام مصطلح (الدعوة الإصلاحية)، وذلك بالنظر إلى أهميّةِ ودورِ تحديدِ المصطلحات في ضبط المفاهيم والرؤى والتصورات، كي لا ننأى بالحديث عن هذا المفهوم، فيكون خارج إطاره المرسوم، ومحدِّداته المعرفية، فالدلالة المحكمة للمصطلح، يصحّ اعتبارُها معياراً فاصلاً للفهم والاستيعاب والاستنتاج السليم، خاصةً إذا تعلق الأمر بالمسائل التي تختلط فيها التعابير، وتتباين بإزائها أساليبُ ومناهج التبيين

والتفسيرِ والتفهيم والتأويل.. فالمصطلحات هي النوافذ التي من خلالها يتمُّ التعـرّفُ الصـحيحِ علـى المرجعيـاتِ الفكريـةِ والحضـاريةِ، فهـي بالنسـبة للثقافـة والفكـر، كالمعاجم بالنسبة للّغة والمفردات.

القسم الأول: مفهوم الدعوة الإصلاحية في الفكر الإسلامي

1. وقفة مع مصطلح الدعوة

الدعوة لغة

يقول صاحب المعجم الوسيط: «دعا بالشيء دعـواً، ودعـوةً ودعـاءً ودعـوى: طلبَ إحضارَه، ويُقال: دعا اللهَ: رجا منه الخيرَ ولفلان: طلبَ لـه الخـيرَ، ودعـا علـى فلان طلـب لـه الشـرَّ.. كمـا يُقـال: دعـاه إلى القتـال، ودعـاه إلى الـدين، ودعـاه إلى المذهب: حثه على اعتقاده. والداعية: من يدعو إلى دين أو فكرة»[1]

ويقول ابن منظور في لسـان العـرب: «الـدعاة قـوم يـدعون النـاس إلى بيعـة هُدى أو ضلالة، وأحدهم داعٍ، ورجلٌ داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو ديـن.. والنبيّ ﷺ داعي الله، وكذلك المؤذن»[2]

وجاء في أساس البلاغة: «دعوتُ فلاناً: ناديتُهُ وصحتُ بـه، والـنبي داعـي الله، وهم دُعاة الباطل ودُعاة الضلالة»[3]

ويقـول صـاحب القـاموس المحـيط: «الـدعاء: الرغبـة إلى الله تعـالى، ولهـم الدعوة على غيرهم: أي يبدأ بهم في الدعاء، وتداعوا عليه: اجتمعوا»[4]

ونلاحظ أن أبرز معاني الدعوة ومشتقاتها تدور حول جملـة مـن المضـامين أهمهـا: الرغبـة إلى الله – السـؤال– الـدعاء والطلـب – الحـثّ – الأذان والإمالـة –

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، م1، القاهرة، ط2، د. ت، ص 286.

2- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، م 14، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص259.

3- الزمخشري (جار الله)، أساس البلاغة، دار المعرفة، بيروت، 1979 م، ص 189.

4- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، م4، الدار العلمية، بيروت، 1986م، ص 329.

الاجتماع ... إلخ.

ولقد ورد في آياتِ الذكر الحكيم ما يؤكد هذه المعاني الجليلة، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: 45-46].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: 125]

وفي قوله تعالى على لسان الجن لما سمعوا القرآن فرجعوا إلى قومهم منذرين: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: 31] أي أطيعوا ما طلب منكم عمله والتزموا الهداية التي جاء بها النبيّ ﷺ.

كما وردت أيضا في السنة المطهرة الكثير من الأحاديث الشريفة التي تشير إلى بعض هذه المعاني الداخلة في مفهوم الدعوة، لاسيما معنى حثّ الناس على الالتزام بالإسلام وتعاليمه.. كما في قوله ﷺ: «مَن دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تَبِعَهُ»[5].

وقوله ﷺ للصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه، حينما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسولُ الله»[6].

الدعوة اصطلاحا

الدعوة في المصطلح الشرعي هي: نداء الناس وإمالتهم إلى الإسلام، وحثهم على الانتساب إليه، والالتزام به، والاجتماع عليه.

أو هي: ذلك الجهد المنهجي المنظم الهادف إلى تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وإحداث تغيير جذري في حياتهم، من منطلق الوفاء بواجبات الاستخلاف،

5- صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من دعا إلى هدى.
6- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة.

ابتغاء مرضاة الله تعالى، والفوز بما ادّخره لعباده الصالحين في جنات النعيم[7].

بعد هذه الوقفة مع مصطلح (الدعوة) نأتي الآن إلى مصطلح (الإصلاح) للاستقصاء والفهم، محاولين الاختصار قدر الإمكان.

2. وقفة مع مصطلح الإصلاح

الإصلاح لغة ضد الإفساد.. وهو من الصلاح الذي يُضاده أو يقابله الإفساد، وقد ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم، كما في قوله عزّ وجلّ ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56] ... فالإصلاحُ إذن هو التغييرُ إلى الأفضل والأحسن والأقوم. وذلك يشمل الاعتقاد والفكر والسلوك والعلاقات، وهو يستهدفُ الأفراد والجماعات والنّظم والأمم...

يقول الشيخ محمد رشيد رضا معلقاً على هذه الآية الكريمة: «أي لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحِ الله تعالى لها بما خلق فيها من المنافع، وما هدَى الناسَ إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم.. فالإصلاح الأعظم إنما هو إصلاحه تعالى لحال البشر، بهداية الدين وإرسال الرسل، وإكمال ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، الرحمة العامة للعالمين، فأصلحَ به عقائدَ البشر ببنائها على البرهان، وأصلحَ به أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها بين مصالح الروح والجسد، وما شرع لهم من التعاون والتراحم، وأصلحَ سياستهم ونوعَ الحكم بينهم بشرع حكومة الشورى المقيّدة بأصول درء المفاسد وحفظ المصالح والعدل والمساواة»[8].

أما في الاصطلاح فيُطلق على اعتبارين رئيسين هما:

الأول: محاولةُ ردِّ الاعتبار إلى القيم الدينية، وإزالةُ ما أثير حولها من شبهاتٍ وجهالاتٍ وتأويلاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان. أي استعادةُ المفاهيم الدينية

7- الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، ط1، 1416 هـ / 1996 م، ص67.

8- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 8، دار المعرفة، بيروت، ط2، د. ت، ص 460.

الأساسية لاسيما ما تعلق منها بالعقيدة والعبادة، وغرسها في الوعي والإدراك بطريقة صحيحة. كي تكون مطابقةً لما ورد في المصادر المعصومة. لأن من أهمّ شروطِ صحتها وقبولها أن تكون وفق ما طلبه الشارع الحكيم وحثّ عليه.

الثاني: المحاولاتُ الفكرية التجديدية التي تستهدفُ تنظيمَ الحياة والمجتمع وفق منظور معين أو منهج معيّن في الفهم والتأويل، بحيث تُحرّك قطاعاتٍ واسعةً من الناس من أجل تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ونحوها، على أن يكون الهدف دائما التمكين للإصلاح واستئصال المفاسد في جميع المجالات.

وقد اعتُبرت دعواتُ الأنبياءِ -صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين- دعوات إصلاحية كما جاء على لسان نبي الله شعيب -عليه السلام- ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

أي ما أريد ولا أرغب إلا الإصلاح العام فيما آمر به، وفيما أنهى عنه ما دمتُ أستطيعه، لأنه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ليس لي هوى ولا منفعة شخصية خاصة بي فيهما. ولو لا ذلك لما فعلته. وقد عقّب بقوله: وما توفيقي إلا بالله، والتوفيق ضد الخذلان، وهو الفوز والفلاح في إصابة الإصلاح. الذي من شروطه طلبُ الشيء من طريقه، وموافقةُ الأسباب الكونية أو السنن الإلهية التي يتوقف عليها النجاح. وذلك لا يتم إلا بتوفيق الله وعونه وقوته[9].

وقد ساد في الكثير من أدبيات الفكر الإسلامي المعاصر، توصيفُ الجهودِ الفكرية والدعوية التي تركّز على معالجة المفاهيم والقضايا التي تتصل بالعقيدة وإصلاح الواقع الاجتماعي من منظور ديني، بأنها جهودٌ إصلاحيةٌ سلفيةٌ، لذلك نجد الكثير من الكتّاب ممن أرخوا لتطور الفكر الإسلامي، وحاولوا أن يضعوا هذا الفكر في تقسيمات زمنية من التحقيب التاريخي[10]، قد أطلقوا هذا الوصف على عدّة حركات، أشهرها حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب [1115 - 1206هـ /

9- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 12، ص 145.

10- زكي الميلاد (السيد جمال الدين الأفغاني وتطور الفكر الإسلامي الحديث) مجلة الكلمة، العدد 22، السنة السادسة، شتاء 1999 م، بيروت (لبنان)، ص 18.

1700 - 1792 م] التي ظهرت في نجد قلب الجزيرة العربية واشتهرت باسم الحركة الوهابية. وعلى حركة الإمام محمد بن علي السنوسي [1202 - 1276 هـ /1787 - 1859م] التي ظهرت في ليبيا وانتشرت في شمال افريقيا وأجزاء من الصحراء الكبرى، وعُرفت باسم الحركة السنوسية. وعلى حركة الإمام محمد أحمد المهدي [1259- 1302 ه / 1843 - 1885 م] التي ظهرت في السودان وانتشرت في عدة مناطق من شرق افريقيا. واشتهرت باسم الحركة المهدية أو حركة الإمام المهدي.

أما الفكر الإسلامي المعاصر فقد ارتبط بالواقع الذي تبلور عقب سقوط الخلافة العثمانية، التي كانت آخر مرحلة من مراحل نظام الخلافة الإسلامية وفق الأنماط التي ظهرتْ بها في تاريخ المسلمين. وقد عَرفت هذه المرحلة هي الأخرى نماذج متعدّدة من جهود الدعوة الإصلاحية، تجسّدت في رؤية واجتهادات أعلام الإصلاح وقادة الفكر والدعوة والتغيير، ومن أشهر أعلام هذه المرحلة خير الدين التونسي [1810 - 1890 م] وجمال الدين الأفغاني [1838 - 1897 م] ومحمد عبده [1849 - 1905 م] ومحمد رشيد رضا [1865 - 1935 م] ومحمد إقبال [1873 - 1938 م] وعبد الحميد بن باديس [1889 - 1940 م].. وغيرهم من رجال الدعوة وأعلام الإصلاح في تاريخنا المعاصر.

3. قضايا مهمة في الدعوة إلى الإصلاح

أ. ما هي دواعي الإصلاح؟

تحرص كلُّ أمةٍ على أن يكون بناؤها من الداخل بناءً سليماً متيناً، لارتباط ذلك ببقائها واستمرار وجودها، وهذا أمرٌ مشهودٌ معروفٌ بالفطرة، غير أن الواقع لا يخلو أبدا من المفسدين، فما برحت العصور تلد من الضالين المعاندين، والمضلين المخادعين، مَن يحاولون إثارة الفتن، وإطلاق النفوس من قيد الأدب والعفاف والاستقامة؛ وفي كلّ عصر لا يفقد هؤلاء أولي عزم وإخلاصٍ يقرعونهم بالحجّة والبرهان، ويهتكون الستار عن مفاسدهم ومباذلهم.

أما بالنسبة إلى المسلمين فيُضاف إلى هذا الداعي الفطري الكامن في نحيزة (طبيعة) جميع الأمم والمجتمعات، عاملٌ آخر، هو واجبُ الدعوةِ وإصلاحُ

الأوضاع العامة بهدي الدين الحنيف، ومقاصدِ الشريعة السمحةِ، وشعورُهم بأن الدعوة إلى الله هي أبلغُ مظاهر تعظيمِه سبحانه وتعالى.

ولقد تهيأت في هذا العصر لدعاة الإفسادِ ما لم يتهيأ لغيرهم في العصور الغابرة، لذلك ينبغي على أهل الحكمة والرشاد في الأمة الإسلامية، أن يعدّوا للدعوة والإصلاح ما استطاعوا من جهد وقوة، كالتخطيط ودراسة الواقع وفهمه ومحاولةِ التحكّم في العواملِ المؤثرة فيه. كي يستطيعوا تكسيرَ شوكة النفوس المترعة بالشهوات، قبل أن تبلغ أمنيتَها وضالتَها. لأن الفساد سريع العدوى والانتشار بين أصحاب النفوس الضعيفة والأخلاق الواهنة.

علما أنه يوجد لفيفٌ من الناس في جميع المجتمعات، لا يُعدُّ التمرّدُ والانحراف من شيمهم وطبائعهم، وإنما تسرب إليهم مقدارٌ من ذلك، نتيجةً للجهلِ وعدمِ صفاء البصيرةِ و اختلاط الرأي لديهم بالهوى، فوضعوا إلى جانبِ حقائقِ الإسلامِ ما يتبرأُ منه الإسلام، ومن أيدي هؤلاء تولّدت البدع، ومن ألسنتهم شاعت الخرافات، ومن آرائهم الكليلةِ دخلَ في الكتاب والسنة ضربٌ من سوء التأويل[11].

ولا شك أن جهود المصلحين، كما ينبغي أن تتجهَ إلى إنقاذ النفوسِ الزاكيةِ من أن تقعَ في حبائلِ وشَرَكِ أولئك الذين يُضلّون عن سبيلِ الحياة الطيبة ويبغونها عوجا، لا بدّ أن تتّجه أيضا إلى ضرورةِ تقويمِ مسالكِ أصحاب البدع، والكشفِ عن مجانبتها للشرع الحنيفِ والهدي النبوي الكريم. وبذل الوسع في إعادتها إلى الجادة وسواءِ السبيلِ.

وصفوة القول في هذا المقام أن نقول بأن كلّ دعوة تستهدفُ إعادة الناس إلى الدين الحق أي ما كان عليه زمن النبي ﷺ، عن طريق التصدي للشركيات والخرافات والبدع والتقاليد والأعراف المنافية للشرع الحنيف، وتثبيت عقيدة التوحيد الرائقة الصافية في النفوس، وإقامة العدل بين الناس، والعمل على استتباب الأمن، ودعم المحبة والإخاء والتضامن، هي دعوة إصلاحية.

11- محمد الخضر حسين، رسالة الدعوة إلى الإصلاح، منشورات المطبعة السلفية، القاهرة، ط1، 1346 هـ ص 11.

ب. التعاون على شأن الدعوة

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أن قيام الواحد بفريضة الدعوة كافٍ إذا حصل المطلوب على نحو بديع يحقق المراد، واستشهدوا بقول الله سبحانه وتعالى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، وقالوا في وجه الاستشهاد: إن الطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه. وهذا الرأي ربما يكون وجيها في حال النظر إلى إبلاغ الأمر والنهي. وتصوير الحق بين أيدي الغافلين عنه.

أما من حيث فعلُ الدعوة في النفوس ودخولها مدخل الإقناع، فمن البيّن الواضح أن للدعوة التي تقوم بها الجماعة أثراً لا تبلغه دعوةُ الفرد. وربما يصحّ في تحرير هذه المسألة أن الأمر يتوقف على حال المدعوين، فإن العدد القليل يغني في دعوة جماعة تتقارب مشاربهم وتتشابه أحوالهم النفسية. أما إذا اختلفت مشاربهم وتباينت منازعهم وتوجّهاتهم، فلا شك -حينئذ- أن كثرة القائمين بالدعوة وتظاهرهم على شؤونها، يضحى أمراً مهما لترجيح كفّة الدعوة والانتصار لمضامينها، إذ إن لكلّ داعية أسلوبَه، وقد يبدو للداعية من وجوه تحسين الأمر أو التنفير منه ما لا يخطر على بال آخر وإنْ كان أغزرَ علماً وأوسعَ نظراً. وقد تخضع النفس لأسلوب دون أسلوب، وتهتدي بطريقة من الجدل أو الموعظة أكثر مما تهتدي بغيرها، ولو كانت أقربَ دلالة لمعايير المنطق والنظر والموازنة.

إن التباين في المشارب والميول أمرٌ فطريٌ في نفوس البشر، لذلك فهو يقتضي أن تتعدّد أساليبُ الدعوة، وأن تتعاضد الجهود، ونجد لذلك أمثلةً كثيرةً في كتاب الله تعالى، فقد دعا موسى عليه السلام ربه عزّ وجلّ أن يجعل أخاه هارون شريكاً له في الرسالة وإبلاغ الحجّة ومطاردة الشبهات، فقال ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: 29-32].

كما بعث عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية برجلين اثنين ليدعواهم إلى الإيمان، فقابلهم أهلُ أنطاكية بصدود وعناد وتكذيب، فأضاف لهما رجلا ثالثاً يؤيد جهودَهما، كما قال الله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:

.[14-13

وهذه الأمثلة القرآنية يجبُ الاعتبارُ بها، وعدُّها دليلاً على ضرورة أن تتعاضدَ جهودُ الدعاةِ والمصلحين والمربين والإعلاميين وأهلِ العلم والتعليمِ وأولياءِ الأمرِ، على خدمةِ الدعوةِ وإصلاحِ الأوضاعِ كافةً، من منطَلقات ومقاصد وتشوّفاتِ ديننا الحنيفِ في الإصلاحِ والبناءِ وتأهيلِ الإنسانِ المسلم القدوة أو الأنموذج والمثال الصالح.

علما أن الناس في إدراك الحقائق على أربع طبقات:

صنفٌ يشعر بوجه الحق فيستولي عليه، وهو بمستطاعه أن ينصب عليه الدلائل الصريحة ليهتدي بها المهتدون، والحق أنه لا تُبعث أمة من مرقدها ولا تستيقظ من سباتها، وتمتطي غارب عزّها إلا إذا نبتت فيها نابتة من هذا الصنف.

وصنف لم يبلغ في قوة الشعور وسرعة الخاطر أن ينتبه إلى جهة الحق، من تلقاء نفسه، وهو لو تُرك لحاله لتمادى في جهالته واستمر في غوايته؛ لكنه إذا ما لاح له الحق يرمي ببصره إليه، ثم يأخذ بنصب الدلائل عليه.

وصنف آخر لا ينتبه للحق بنفسه، ولا يستطيعُ في حال تنبيهه من إقامة الشواهد عليه. فهو بحاجة دائما إلى مَن يأخذ بيده في بيان الحق وإقامة الأدلة والشواهد عليه، حتى يراه رأي العين. وهذا الصنف إذا انطوى على فطرة سليمة، لا يمكن لأحد -بعد أن يفقهَ الرشد ويستقرَّ على ما اطمأن إليه- أن ينتزعه منه ويغرسَ في مكانه جهلاً أو ضلالاً.

أما الصنف الرابع فيلقي زمامه إلى أيدي الدعاة والمرشدين، ويتلقى أقوالهم بالطاعة دون أن يكلفهم بسط الأدلة على صحة وسلامة فهمهم للمسائل التي يعرضونها أو يخوضون فيها. فهم يعتمدون على الاقتداء بهم بناءً على ما اشتهروا به من علم واستقامة. وعلامةُ هذا الصنف أن مرشدهم إذا رجع في مسألةٍ كان يرى صوابَ وجهة نظره فيها، انقلبوا معه إلى مذهبه الجديد[12].

12- محمد الخضر حسين، رسالة الدعوة إلى الإصلاح، ص 32.

ج. استقامة الداعية سر نجاح الدعوة

مما لا شك فيه أن الدعوة إلى الإصلاح التي تشمل جوانبَ مختلفة في حياة الأفراد والمجتمعات كالاعتقاد ومحاربة البدع والنهي عن المنكر وما إلى ذلك، أساس نجاحها هو الداعي نفسه، ولأهميّة هذه المسألة في سَير الدعوة ونجاحها وانتشارها، خاطب الله تعالى رسولهَ ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

لهذا السبب الحيوي ينبغي على الداعية أن يتحلى بالصفات الآتية:

1. 1 أن يحسن نيته، فلا يجعل دعوته رجاءَ أجر أو مال أو جاه أو ما إلى ذلك من حطام الدنيا. بل هو يدعو ويجدّ في الدعوة والأمر بالمعروف، رجاءَ ما عند الله تعالى، فهو يقوم مقام النبيين في الدعوة، فينبغي أن يخاطب الناس بقلب سليم، لا يطلب ولا يتشوّف إلاّ إلى ما عند الله تعالى، وما أعدّه سبحانه لأصفياء الخلق والصلحاء من الناس، من نعيم وجزاء مقيم.
2. 2 أن يكون عارفاً بوجوه البيان، وفنون القول، كي يكون كلامُهُ مؤثراً، ولا يُشترط أن يكون خطيباً مفوّهاً، بل يُجزئ أن يكون حكيماً في مخاطبة الناس، عالماً بمواضع التأثير وأوقاته.
3. 3 أن يكون ذا خُلقٍ رفيع، فقد ثبت أن أعظم مدخل للتأثير في الأوساط المختلفة، إنما هو حُسن الخُلُق، وصدق نبيّ الهدى ﷺ، فقد سُئل: عن أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة. فقال « تقوى الله وحسن الخلق »[13].. وللبزار بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسطُ الوجه وحُسن الخلق ».
4. 4 أن يكون على حظ من العلم بالكتاب والسنة، ملماً بعادات وتقاليد مَنْ يدعوهم، كي يستطيعَ إصلاحَ ما ورثوه من عادات قبيحة، بأسلوبٍ ليّن رقيقٍ، لا يخدش كبرياءَهم، وقد قال النبيّ ﷺ، لمن أرسلهم للدعوة إلى الإسلام

13- رواه البخاري في الأدب المفرد.

« يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفّروا »[14].

5. 5 أن يبتعد ما أمكن عن مواطن الشبهات، لأن إثارة الشبهات حوله، توهنُ دعوتَه، وتُضعفُ قولَه، فتكون النتيجة المحتومة، فقدان الأثر لدعوته في الواقع الذي يعملُ فيه[15].

القسم الثاني: الدعوة إلى الإصلاح وأشهر التحديات

نحاول في هذا الجزء من بحثنا هذا التوقف عند مصطلح (التحديات) وأهم دلالاته، ثم نعرض لنماذج من أشهر التحديات الراهنة التي تعوق سير الدعوة إلى الإصلاح والترشيد وتزكية الأنفس، وبناء الإنسان المسلم الصالح النموذج (القدوة)، ثم نختمه برصد جملة من النتائج والتوصيات.

1. مفهوم التحديات

التحديات التي تعترض طرائقَ الإصلاح والترشيد والدعوة، متنوعة متباينة، سوف نعرض لبعض أبرز وأوضح وأشهر نماذجها الراهنة.

لكن من المناسب قبل التعرّض لذلك أن نقف وقفةً قصيرةً عجلى أمام مصطلح (التحديات)، فالمصطلحات -كما سبقت الإشارة- بالنسبة للفكر والثقافة هي كالمعاجم بالنسبة للغة والمفردات.

التحديات هي ذلك الوضع الذي يمثّل وجودُهُ أو عدمُ وجوده، تهديداً أو إضعافاً أو تشويهاً جزئياً أو كلياً، دائماً كان أو مؤقتاً، لوجودِ وضع آخر يُرادُ له الثبات والقوة والاستمرار والتمكين.

ومثال ذلك التحدي الثقافي، فهو يمثّل تهديداً وخطراً وإضعافاً وتشويهاً لمنظومة ثقافية أخرى لها نسقها ومرجعيتها المتفرّدة المتميّزة، ولهذا السبب يصحّ أن نطلق عليه مصطلح (التحدي الثقافي).

14- متفق عليه من حديث أنس بن مالك.

15- محمد أبو زهرة، الدعوة إلى الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، ص 139.

أيضا هنالك تعريفٌ آخر يقول بأن التحديات: هي تطوّرات أو متغيرات أو مشكلات أو صعوبات، أو عوائق نابعة من البيئة المحلية أو الإقليمية أو العالمية. وهي قد تكون ذات صبغة ثقافية أو إعلامية أو دينية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو صحية أو بيئية.. إلخ[16].

وغالبا ما يكون حجم التحديات عاملا رئيساً في تحديد مدى أخطارها وأضرارها على الوضع الذي تستهدفه أو تتهدّده، فقد لوحظ أن بعض التحديات يمثل خطراً حقيقياً، نظراً لشدّة تأثيرها، وأن بعضها الآخر يكون افتراضياً أو محدود التأثير.. فنوعية المواجهة أو طريقة التصدي تتحدّد بناءً على تقويمِ نوعِ التحدي ومدى تأثيره أو ضرره.

2. أشهر التحديات المعاصرة أمام جهود الدعوة إلى الإسلام

تتعرض الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، إلى تحديات كثيرة متباينة في طبيعتها وأهدافها وقوّة تأثيرها، بعض هذه التحديات يمكن وصفه بأنه محلي داخلي، وبعضه الآخر ذو طبيعة عالمية، وبعضُه الآخر يتداخل فيه المحلي والعالمي... وهذه بعض تلك التحديات:

1. انتشار الجهل والأمية

رغم أن رسالة الإسلام قامت منذ الوهلة الأولى من بزوغ نوره، على العلم والقراءة وتنوير العقول، ومناهضة الجهل والأمية، إلاّ أن الكثير من الإحصاءات ما تزال ترصد نسباً عالية من الأمية في العديد من البلاد العربية والإسلامية، بسبب أن الظروف السياسية التي مرّت على الأمة الإسلامية خلال فترة الاستعمار الأجنبي، ما تزال تُلقي بآثارها على الصعيد الثقافي والاجتماعي، وهذه المشكلة العويصة تتغذى من عدّة عوامل، أبرزها الفقر والتسرّب المدرسي المبكّر.

إن الأميّة من أخطر عوائق التنمية والنهوض الاجتماعي في البلاد العربية والإسلامية، وبالتالي فهي من أبرز التحديات في طريق الإصلاح والدعوة وتأهيل

16- زكريا داود، الأمة الإسلامية والتحديات المعاصرة، مقال منشور على موقع: www. alwihdah. com / تاريخ 26 أبريل 2010 م.

الأفراد والجماعات في النسيج الاجتماعي للمجتمعات المسلمة. فدعوةُ الإسلام في أول كلمات التنزيل الشريف إلى القراءة، تتضمن إعلاناً صريحاً بكون الإصلاحِ يكون متعذّراً مع انتشار الجهل والأمية وغياب المعرفة والعلم.

ولقد بلغ من أمر التشديد على هذه المسألة، أن النبيّ ﷺ، عَقِبَ غزوة بدر الكبرى أقرَّ -في مسألة أسرى بدر- بكون تعليم الكتابة لعشرة من أبناء المسلمين يُعدُّ سبباً كافياً لإطلاق سراح الأسير. كما أعلى القرآنُ الكريم من شأن العلم والمتعلمين، لأن الإصلاح والقيام بواجبات الاستخلاف، لا يتحقق بغير هذا الشرط.

والدليل على صحّة اعتبار الجهل والأميّة، من طلائع التحديات في سبيل الإصلاح، أن الاستعمار الأجنبي، لا يكادُ يستقرّ بأرض إلا وتكون بدايات أعمالِهِ، محاربة الثقافة الذاتية والتعليم الأصلي أو الديني، لصلتهما الوطيدة ببناء الشخصية القومية ذات التميّز والفرادة والاستقلالية عن ثقافته وتوجّهه وأهدافه.

يقول الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: «كما أنّ جهنّم تُتّقى بالأعمال الصالحة، وأساسُها الإيمان، فإنّ الاستعمار يُتّقى بالأعمال الصالحة، وأساسُها العلم، وإذا كان العدو الأكبر لجهنّم هو العمل الصالح، فإنّ العدوّ الأكبرَ للاستعمار هو التعليم. يُحرِّم الاستعمارُ الفرنسيُّ التعليمَ على مسلمي الجزائر، ويفرضُه على أبنائه في وطنه، فإنْ عجبتَ فاعجبْ لشيءٍ واحدٍ يُحرَّمُ في وطنٍ ويُفرضُ في وطن!!..

إنّ تعطيلَ المدارس العربية بالأوامر الإدارية تَمَّ لأنّ المعلّمَ الذي يُعلّمُ أو الجمعية التي تُدير، غير مرضيٍ عنهما، وهو يُعدُّ عقوبةً للأطفال الصغار الذين لم يرتكبوا ذنباً، ولو أنها عقوبةٌ لهم في أبدانهم، لقلنا: جرحٌ ويندمل. ولكنها عقوبةٌ لهم في دينهم ومشاعرهم وعقولهم. إننا نريدهم عناصرَ نافعةً لنفسها وللمجتمع، أما الاستعمار فيريدهم لصوصاً وحيواناتٍ ضارةً وبلاءً على أنفسهم وعلى أوطانهم وأمتهم المسلمة»[17].

17- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت. ط، ص 238، بتصرف بسيط.

ومن هنا ندرك على وجه اليقين بأن الأمية الفكرية والثقافية وانتشار الجهل وانغلاق العقول وتكلّس الأذهان من أعوص المشكلات ومن أخطر العوائق التي تعترض سبيل الدعوة إلى الإصلاح.

2. الإساءة إلى أهل العلم والانتقاص من شأنهم

من الظواهر السلبية في ساحة الدعوة إلى الإسلام والإصلاح العام لأوضاع المسلمين، ظاهرة التطاول على الدعاة وأهل العلم والفكر، فمدارك بعض الشباب لا تتسع أحيانا للإحاطة ببَعض المسائل والقَضايا التي تُثار في بيئات معيّنة أو في أجواء مختلفة، الأمر الذي يضفي عليها غموضاً والتباساً، لأن معالجتها كانت معالجة خاصة، محكومة باجتهاد وتقدير خاص، فرضته ظروف خاصة أو استثنائية، وفي الغالب لا يحيط الشباب علماً بخلفيات ودواعي هذا الاجتهاد والتكييف.. فيقع الانزلاق وتقود هذه القضية إلى تحفظ على بعض العلماء والدعاة والمفكرين، غير أن هذا التحفظ لا يلبث أن يتحول إلى نهش في أعراضهم وغمز ولمز في شمائلهم ومسالكهم... مع أن الإعلان عن رأي أو نظرٍ ما في مسألةٍ من المسائل أمرٌ مألوفٌ في تاريخ المسلمين الفكري والثقافي. وهو لا يفسد للود قضية كما يقال، بل ذلك هو الأصل في آثار أهل العلم والذكر والمعرفة، كما هو واضح في تاريخ حضارتنا.

لقد كان بعض السلف يقول: إني لألتمس لأخي المعاذير من عذرٍ إلى سبعين عذراً، ثم أقول لعلّ له عذراً أخرٍ لا أعرفه!.. ومما حكاه ابن كثير في البِداية والنهاية أن سفيان بن حسين قال: ذكرتُ رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر في وجهي فقال: أغزوتَ الروم؟ قلتُ: لا. قال: السندَ والهندَ؟ قلتُ: لا. قال: أفسلمَ منك الروم والسند والهند. ولم يسلم منك أخوك المسلم!!! قال: فلمْ أعد منذ ذلك اليوم إلى الغيبة ونهش لحوم إخوان العقيدة.

ولا شك أن الأمر الواضح في ديننا فيما يتعلق بهذا الخصوص، أنَّ نهشَ الأعراض من المنكرات الكبيرة والعيوب السلوكية الفادحة، لا سيما إذا تعلق هذا النهش بأعراض العلماء وصفوة المجتمع، لذا كان من أخلاق السلف وأخلاق السابقين أنهم يقدمون في المصاحبة الأبله الذي نشأ مع العلماء على اللبيب الذي

نشأ مع الجهال وأهل البدع والمنكرات!

وكان ابن القيم رحمه الله يقول « تجنبوا الكلام في العلماء فإنهم يدورون بين الأجر والأجرين » ... كما أن فقيه الأندلس ابن عبد البر رحمه الله (ت 463 هـ)، حذّر من عواقب هذا السلوك غير الراشد، في عبارات قويّة مجلجلة يقولُ فيها: « لحومُ العلماء مسمومة، وعادةُ الله في هتك أعراضِ منتقصيهم معلومة، فمن أخذَ فيهم بالثّلبِ ابتلاهُ اللهُ قبلَ موتهِ بموتِ القلبِ »!!

وقد يكون لهذه العلة أيضا سبب نفسي أو عقدة باطنية مستخفية، في أعماق الطاعن نفسه، كمرض خفاء العيوب لدى قطاع من الناس، الذي أشار إليه ابن المقفّع بقوله « ومن أشدّ عيوب الإنسان خفاء عيوبه، فإن مَن خفي عليه عيبه خفيتْ عليه محاسنُ غيره. ومَن خفي عليه عيبُ نفسه ومحاسنُ غيره، فلن يُقلِعَ عن عيبه الذي لا يعرف! ولن ينال محاسنَ غيره التي لا يبصر أبدا ».

ولا شكّ أن هذه الظاهرة من التحديات التي تستنزفُ جهودَ الدعاة والمصلحين، وتتسبب في تعكير الأجواء العامة في ميادين الدعوة والإصلاح وترشيد الناس. بل تؤدي إلى ضعف المردود وضآلة النتائج، لأن للشبهات والأراجيف المثارة أثراً سيئاً على نفوس الناس عامة والشباب خاصة.

يذكر أحدُ الدعاة أنه حضر حفلا دعوياً عاماً، لكنه تحوّل من نعمة إلى نقمة، والسبب أن أحد المهتمين بالدعوة أخذ الكلمة وبدأ كلامَه بالهجوم على كاتب إسلامي بارز، حتى نهشه نهشاً، ونسبَ إليه كلّ الشرور!! فاختطف منه أحد الحاضرين الكلمة، وراح يردّ عليه بغضب وعنفوان. ثمّ تطوّر الحديث بينهما وأخذ منعرجاً خطيراً، بحيث أخذ كلٌّ منهما يكذّبُ الآخرَ أمام الملأ وينسبُ إليه الكثير من الهنات والنقائص وانحراف السلوك وخلل التفكير.. إلخ!!.. فانفضّ الجمع.. وضاعت فرصة ومناسبة للدعوة والإصلاح والترشيد، بسبب هذا السلوك الأرعن المتمثل في تجريح علماء الأمة ومصلحيها وقادتها[18].

18- الطيب برغوث، الخطاب الإسلامي المعاصر وموقف المسلمين منه، دار الامتياز، وادي الزناتي (الجزائر) ط1، 1990 م، ص 76.

إن المناخ العلمي والفكري الحر النزيه هو السبيل الأجدى، والعلاج الأنجع للقضاء على مثل هذه الظواهر السلبية المرضية... لأن الشخص المريض إذا ما وجد الأجواء المناسبة تحوطه من كلّ جهة، ووجد أبواب الحوار مشرعة، فإنه يلجأ إلى التعبير عن رأيه وفق مقتضيات أدب الحوار، بدلاً من نهجه منهج التجريح ونهش أعراض الغير، وهو بسيره في هذا السبيل يكون مهيئاً لتدارك الأخطاء والتخلّص من أمراضه النفسية ومنزلقاته الفكرية.

3. سوء التعامل مع الخلافات الفقهية والمذهبية

أيضا من التحديات التي تلقي بظلال ذات طبيعة سلبية على الدعوة إلى الإصلاح، مسألة الخلافات الفقهية والمذهبية في أقطار العالم الإسلامي، علما بأن المذاهب الفقهية ليست هي التي فرّقت بين المسلمين، وليس أصحابها هم الذين ألزموا الناس بها أو فرضوا على الأمة تقليدهم، بل نصحوا وبذلوا الجهد والوسع في الإبلاغ، وحكّموا الدليلَ ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، حتى أتوا -لكثرة ما بذلوا من طاقتهم- بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل، والتفريع والتأصيل. وقد شهد لهم أهلُ الاختصاص وأربابُ الدراية في هذا الميدان، وحكموا بأنهم تفوّقوا على كافة المشترعين، في باب استخراجِ علَلِ الأحكامِ وبناءِ الفروعِ على الأصولِ ومراعاة المصالح والمقاصد.

إلا أن غياب الرؤية السليمة لدى قطاع عريض من المسلمين إزاء فهم هذه المسألة والتعامل معها، تسبب في تولّدِ عدّة مشكلات ومتاعب للدعوة والدعاة واستنزف الكثير من الجهود، التي كان ينبغي أن تُصرفَ فيما يعود بالخير والنفع على الإسلام ودعوته. ومَن أراد التأكد من هذه المتاعب فليراجع كتاب (ما لا يجوزُ فيه الخلاف بين المسلمين) للشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله.

وعن الآثار السلبية لسوء التعامل مع الخلافات الفقهية، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

« رأيتُ دينَ اللهِ يتّسعُ لوجهات نظر لها وزنها المتقارب، لكنّ دنيا الناس تضيقُ بما وسعه دينُ الله. إن الفقه مظلَّومٌ حين نحمّله اشتجار الآراء واحتدامَ العصبيات وتجريحَ الرجال، لعلّ المسؤولَ قلةُ الفقه، أو لعلّ المسؤولَ ضعفُ

التربية. فمتى نبرأُ من هذه العلل؟!»[19].

إن العمل الدعوي يعاني من هذه المشكلة، سواء في واقعه الفردي أو الجماعي؛ وكثيراً ما تؤدي هذه المشكلة إلى إغراق العمل الدعوي في الجزئيات، ومعالجة المسائل الفقهية والاجتماعية، برؤية موغلَة في التعصب لتقليد اجتهادات المجتهدين القدامى، وكأنّ تباين الزمان والمكان، لا اعتبار له في تكييف الأحكام وإسقاطها على المسائل والنوازل التي تستجدّ للناس في حياتهم.

وقد زاد من حدّة هذا التحدي أمام الدعوة الإصلاحية، انتشارُ الطرائقِ الصوفيةِ في العديدِ من البلادِ الإسلاميةِ، حتى باتَ عددُها يربو على عدد المذاهبَ الفقهية. يقول الشيخ الإبراهيمي: «وإذا كان الناظرُ في أحوال المسلمين ممن رُزق مَلكةَ التعليل، وأرادَ إرجاعَ كلِّ شيءٍ إلى أصلهِ الأصيل ومنبتهِ الأول فإنه لا يعسر عليه أن يُرجِعَ أمّهاتِ عِللِ المسلمين الدينية والاجتماعية إلى هذه الصوفية الكاذبة الخاطئة التي أصبحت من عدّة قرونٍ فكرةً تسودُ العالمَ الإسلامي وتتحكم في دينه وتتدخّلُ في حياته وسياسته». ثم يستتلي قائلا عن شيوخِ هذه الطرائق الذين باتَ «يُقدّسُ ميّتهم وتُشادُ عليه القباب، وتُساقُ إليه النذور، ويتمرّغُ بأعتابه، ويُكتحلُ بترابه، وتُلتمس منه الحاجات، وتفيضُ عند قبره التوسلات والتضرّعات، ويكون قبره فتنةً بعد الممات كما كان فتنةً في الحياة»[20].

ولا ريب أن هذه المسألة لا تُعدّ من التحديات الخارجية التي تعترض سبيل الدعوة، لكنها من المشكلات الواقعية التي تؤثر سلباً على مردود الدعوة الإسلامية. والتغلّب عليها سبيله مراجعة المنهج الذي على أساسه يتمّ تكوين الدعاة والمؤثرين في الحقل الفكري والثقافي الإسلامي بوجه عام؛ فكلّما كان هذا المنهج أكثر ضبطاً وإحكاماً، كانت إمكانية التغلّب على هذه السلبيات والنقائص ماثلةً ومؤكدةً. والتأكيد هنا على المنهج إنما هو من باب القضاء على مثل هذه

19- محمد الغزالي، الحق المر، الجزء الأول، دار الشهاب، باتنة (الجزائر) ط1، 1987 م، ص46.

20- محمد البشير الإبراهيمي، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب، الجزائر، 1984 م، ص 30- 34.

المشكلات السلبية من الأساس والمنبت والجذر؛ أما ما هو موجود منها في واقع الدعوة وساحاتها فيُعالج بالحوار العلمي الهادئ إلى أن تزول نهائياً أو يضعف أثرها ويتراجع.

4. الغزو الفكري والإلحاق الثقافي

لقد أدرك أعداء هذا الدين السمح الكريم في وقت مبكر، بأن الهيمنة العسكرية على البلاد الإسلامية لا تكفي، لأنها لا تضمن تأبيد التبعية والإلحاق، أما ما يضمن لهم هذا الهدف، فهو التغيير الناعم، أي تغيير العقول والأفكار وإعادة تشكيلها وفق إرادة الغالبِ أو المهيمن بنموذجه الحضاري وعطائه العلمي والمدني، وقد سلكت تلك الدوائرُ عدة مسالك، كي يؤتي الغزو الفكريّ والإلحاقُ الثقافي ثماره المرجوة والمرغوبة لديهم، أبرزها:

أ. أ توجيه وسائل الإعلام: لم يكن تأثير وسائل الإعلام ليخفى على تلك الدوائر الحريصة على إضعاف الروح المعنوية للمسلمين، لذلك عملوا على ضرورة أن تكون وسائل الإعلام أداةً فعالة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، والإساءة إلى معتقداتنا وشعائرنا ومناسكنا التعبدية، ونشر الشبهات والأباطيل والمغالطات حول نبيّ الإسلام وحقائق الوحي وتعاليم الشريعة الإسلامية، ولم يسلمْ من ذلك أعلام الإسلام وتاريخُ المسلمين ومنجزاتهم العلمية والحضارية.

ولا شكّ أن كلّ متابع لوسائل الإعلام الغربية، يلحظ تلك المواد والبرامج الموجّهة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين والإساءة إلى معتقداتنا وشعائرنا وأعلامنا وتاريخنا.. وكثيراً ما يتمّ توظيف المسرحيات والمسلسلات والأفلام، التي تدعو إلى الفجور والانحلال، والبعد عن الحياة المستقيمة، والتهكّم المباشر بأحكام الإسلام وتعاليمه. لاسيما فيما يتعلق بأحكام المرأة والعلاقة بين الجنسين، والحريات الشخصية.. إلخ..

وقد عضّدت شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وكذلك الفضائيات وغيرها من وسائط الاتصال المعاصرة، هذا التوجّه بشكل ملحوظ لا يخفى على أيّ أحد من الناس.

ب. ب توجيه الدراسات الاستشراقية: إلى جانب توجيه وسائل الإعلام ووسائط

الاتصال الحديثة، تحرص الدوائر والمؤسسات المعنية بإضعاف المسلمين معنويا بواسطة وسائل التغيير الناعم، على الإفادة من الدراسات الاستشراقية، وتوجيهها هي الأخرى، لخدمة هذا الغرض، وهي تدرك أن دراسات وأبحاث المستشرقين قد تؤثر في النخبة المثقفة، التي قد يكون لها شأن وحضور في صناعة القرار داخل بلدانها وضمن محيطها الاجتماعي والأكاديمي وغيره.

والاستشراق -كما هو معلوم- هو دراسة بعض المتخصصين الغربيين لعلوم الشرق وتاريخه وأديانه ولغاته والتقاليد السائدة في أقطاره، لاسيما أقطار العالم الإسلامي، لأغراض وأهداف متباينة، قد يأتي في طليعتها تشويهُ صورة الإسلام، والتشكيكُ في عقائده ومبادئه وتعاليمه.

ولخدمة هذا الهدف قدّم المستشرقون آلاف البحوث والدراسات والأطالس والموسوعات ونحوها من الأوعية المعرفية، وكان من أشهر أعمالهم (دائرة المعارف الإسلامية) التي صدرت في البداية بثلاث لغات واسعة الانتشار هي الانجليزية والفرنسية والألمانية، ثم تُرجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى كثيرة منها اللغة العربية، وقد اشترك في تأليفها أكثر من أربعمائة باحث مستشرق، وقد احتوت على أكثر من ثلاثة آلاف مادة، وهي معلومات عن الإسلام وعن شعوبِ الشرق وحضاراته، مع العلم أنه غلب على مواد هذه الموسوعة الضخمة، الترويجُ للشبهات والمطاعن حول القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، وتاريخ المسلمين وأعلامهم ومنجزاتهم في العلم والحضارة.

5 التنصير والتبشير في أقطار الإسلام

ومن التحديات أيضا في طريق الدعوة الإصلاحية الإسلامية في الوقت الراهن، التنصيرُ أو التبشير بالنصرانية بين أوساط المسلمين، خاصة بين العوام والدهماء ومَن لاحظّ لهم من الثقافة الإسلامية الضامنة للحصانة العَقَديّة والمعرفيّة.

علما أن التبشير المسيحي ليس لونا واحدا، بل هو يتعدد حسب نوعِ الجمهور الذي يُرادُ تعديلُ أفكاره وتصوراته العقدية والفكرية، فهناك ما يأخذ صورة النقاش العلمي الجدلي، وهذا النوع من التبشير ليست له نتيجة إيجابيةٍ واضحة، لأن الإسلام أصولُه ثابتة لا تتزعزع، مؤسسة على المنطق الذي تنسجم

معه كلُّ فطرة سليمة، كما يتماشى معه كلُّ تفكيرٍ حرٍّ نزيه. وهناك تبشير سوفسطائي يلجأ إلى التشكيك في أصول الإسلام، وقلبِ الحقائق، وتحقير الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ومحاولةِ البرهنةِ على رد القرآن إلَى الجذور المسيحية. وهناك أيضا التبشير الذي يتخفى وراء أساليب الرحمة والعمل الخيري، كإقامة المستشفيات وبناء المدارس ورعاية الأيتام وتقديم المعونات العينية في حالات النوازل والجوائح كالجفاف والمجاعة والفيضانات والحروب.. إلخ. وذلك بهدف القرصنة بعقائد هؤلاء البسطاء وخطفهم من وسطهم الاجتماعي الطبيعي. من منطلق أن النفس البشرية مجبولةٌ على التعلّق بمن أحسنَ إليها[21].

حتى آلام البشر لم تسلمْ من استغلالهم، بل إنهم يعتبرونها مشروعاً مسيحيا ناجعا!! وفي ذلك يقول مؤلف كتاب (التبشير والاستعمار في البلاد العربية): « وأنت إذا أردت أن تعرفَ مبلغ اهتمام هؤلاء الأطباء بالتبشير لا بالتطبيب، فاعلم أنّ نَفَراً منهم أنشأوا مستوصفاً في بلدة (الناصر) في السودان، وكانوا لا يعالجون المريض أبداً، إلاّ بعد أن يحملوه على الاعتراف بأنّ الذي يشفيه هو المسيح »!![22].

ولم ينس المبشرون دور المرأة ومقامَها وتأثيرها في الأسرة، فوجّهوا اهتمامهم إلى التأثير عليها، فأخذوا يبشرون في مستشفيات النساء. كما أرسلوا الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى النائية بهدفِ الاتصال مباشرة بالنساء، واستخدام نفوذ المرأة في الوصول إلى أهدافهم التي يزعمون بأنهاَ نبيلةٌ، لكنها في واقع الأمر شَرَكٌ لخطف عقائد البسطاء من المسلمين بسبب المرض والجهل والفقر.

وهؤلاء المبشرون يعلمون علم اليقين بأن أعدى أعدائهم هم المصلحون المسلمون، لأنهم يدعون إلى الإسلام النقي، والإسلامُ النقي لا مطمعَ للتبشير في طَرْقِ حِماه. يقول المستر بلاس البروتستانتي في كتابه (ملخص تاريخ التبشير):

21- محمد منير حجاب، الدعوة الإسلامية: التحديات والمواجهة، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004 م، 74.

22- مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، د. ت. ط، ص 62.

« إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق التبشير بالمسيحية في أفريقيا. والمسلم هو العدو اللدود لأن انتشار الإنجيل لا يجدُ معارضاً إلا من الإسلام »[23].

فهذه المشكلة من التحديات الواضحة أمام مسار الدعوة الإسلامية، خاصة في البيئات الفقيرة؛ لأن الدعاة يقعُ عليهم واجبُ تعقّبِ هؤلاءِ المبشرين، ومسحُ ما نفثوه في الأذهان وما أذاعوه من بهتان.

غير أن هذا التحدي لا يُواجه بالأقوال وحدها. فإن الأقوال « ليست هي السلاحُ الذي يُحاربُ به التبشيرُ مهما كانت حارةً بليغةً متينةَ الحجّة، فالأقوال قصاراها التحذير من الوقوع في أشراكِ المبشرين. وإنما السلاحُ الماضي الفتاك في هذا الميدان هو المال. ولعمري كيف تستطيع أن تقاومَ جمعياتٍ منظمةً من ورائها أممٌ غنيّةٌ تُغدقُ عليها المالَ، مجهّزة بالجيوش الوفيرة من الرهبان والراهبات والأطباء والممرضات، يوحّدُ الجميعَ أخلاقٌ ممتازةٌ من الصبر والثبات والإيمان الجازم بحسن عاقبة ما وقفوا أنفسَهم عليه »[24].

وليس من ريب أن هذه الصرخة المدويّة التي أطلقها الشيخ الإبراهيمي، قمينةٌ بأن تنبّه القائمين على شؤون الدعوة والإصلاح في العالم الإسلامي، بمدى آثار هذا التحدي، وتداعياته المستقبلية، إذا تُركَ التبشير يمرحُ ويختطف العقائد ويشوّهُ الحقائق، في غفلة الذائدين عن حمى الإصلاح والدعوة.

6. كثرة المغريات وتعدّد التيارات الفكرية

يتّسم هذا العصر بكثرة المغريات وتنوّع المشارب الفكرية، وهو عامل يُسهمُ في تعقيد الحياة المعاصرة، لذلك يعدُّ من أوضح التحديات والعقباتِ الكأداءِ التي تقف في طريق الدعوة والإصلاح والترشيد، حيثُ يجدُ الدعاةُ والمربّون واقعاً يموجُ بكلّ صنوفِ المغرياتِ والشهوات والدعوات الباطلة إلى جانب البدعِ والتصورات الخاطئة عن الدين والعقيدة والشريعة... ومن المعلومِ أنه

23- محمد علي العويني، الإعلام الإسلامي بين النظرية والتطبيق، دار عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1987 م، ص 47.

24- محمد البشير الإبراهيمي، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (مرجع سابق)، ص 73.

كلما كان الناسُ واقعينَ تحت تأثير تلك المغريات والدعوات، كلما كان أمرُ ترشيدهم وإصلاحهم شاقاً، ولهذا السبب تحديدا يجب على الدعاة أن « يُلِمُّوا بالنفس البشريةِ وطُرقِ التأثيرِ فيها، ووسائل تزكيتها.. وهذه الأعباءُ تلحّ علينا لنقل الدعوة من ميدان المشَاعر والانفعالات والخطب، إلى ميدان التخطيط والتنظيم والبرمجة والتأهيل، وليس غريباً أن تبرز هذه الحاجاتُ في هذه المرحلة لأن الدعوة اتسعت وتشعبتْ وتنوّعتْ أساليبُها وتجاربُها »[25].

ولقد أسهمت العولمة وروافدها المتنوعة في الاتصال والتواصل، خلال هذه المرحلة التي تمرّ بها الإنسانية، في التقريب بين التيارات والمذاهب والمنازع المختلفة، فإذا أدركنا بأنه يوجد من بين هذه المنازع والاتجاهات والتيارات مَنْ يكنّ العداوة للإسلام وأتباعه، بفعل العوامل الثقافية الموروثة، أو بفعل أثر الصهيونية وجهودها المتواصلة من أجل استمالة الشعوب الغربية وكسبها إلى صفها في الاستعداء ضد المسلمين ودينهم وحضارتهم.. تضاعف يقيننا بأننا بإزاء تحدٍّ يقتضي من الذائدين بذلَ المزيد من الوسع والجهد في سبيل دفعه وتحييد أثره، وإنقاذ الجيل الجديد لأمتنا، من حمولاته الفكرية وتأثيراته السلوكية.

7. الغلوّ في التكفير

من طبيعة الداعية أنه لا يبحثُ عن سبب وجيه أو حجة دامغة لإدانةِ المخطئ ومعاقبتهِ، فهذا عمل القاضي، أما الداعية فعملهُ تبصيرُ المخطئ الضال وهدايته وإعادته إلى حظيرة الإسلام. لذلك فإن ظاهرة الغلو والتنطّع والتكفير، تُعدَّ من التحديات الخطيرة في ميدان الإصلاح والدعوة والترشيد والتعليم والتربية.

وقد انتشرت هذه الظواهر في بعض البيئات والأوساط الإسلامية، وكان لها أثرُها السيء على الجهود الإصلاحية والدعوية. وبالرغم أن الكفر في لغة الكتاب والسنة، قد يرادُ به الكفر الأكبر وهو الذي يُخرجُ الإنسانَ من الملة بالنسبة لأحكام الدنيا، ويوجبُ له الخلودَ في النار بالنسبة لأحكام الآخرة. وقد يُرادُ به الكفر الأصغر، وهو الذي يوجبُ لصاحبه الوعيدَ دون الخلودِ في النارِ، ولا ينقل صاحبَه

25- همام عبد الرحمن سعيد، قواعد الدعوة إلى الله، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ط2، 1405 هـ / 1985م، ص 10.

من ملّةِ الإسلام، وإنما يدمغه بالفسوق أو العصيان. ودليلُ ذلك أن الـردّة والمعصـية ليسا شيئاً واحداً[26].

وقد نقل السيد صديق حسن خان في (الروضة الندية) ما قالـه الشـوكاني في مصنفه (السيل الجرار). حيث قال «اعلم أن الحكم على الرجل المسـلم، بخروجـه من دين الإسلام، ودخولهِ في الكفرِ، لا ينبغي لمسـلمٍ يـؤمن بـالله واليـوم الآخـر أنْ يُقـدِمَ عليـه، إلاّ ببرهـان أوضـح مـن شمـس النهـارِ، فإنـه قـد ثبـت في الأحاديـث الصحيحة المروية من طُريق جماعة من الصحابة أنّ مَنْ قال لأخيه: يـا كـافر، فقـد باء بها أحدُهما».

بالرغم من ذلك فـإن الكـثيرين مـن الـتكفيريين، لم يتورّعـوا عـن الإسـراف والغلوّ في تكفير الأفرادِ والهيئاتِ والجماعات بل وصل الأمرُ ببعضـم أنهـم كفّـروا المجتمعَ برمته!!

أما وجهُ التحدي في هذه المسألة، فيتمثّل في إعجابِ ذوي الجهـل المركّـب بتأويلهم وتعسّفهم في فهم النصوص والأدلة، وتطـاولهم علـى علمـاء الأمـة الثقـات العدول من السلف والخلف.

وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد.. بل إن التكفير يترتّبُ «عليـه القتـلُ بغـير حقّ، والخروجُ على ولاة الأمر، وتمزيقُ صفّ المسلمين..»[27]؛ فتنتشر الفتنـة بـين المسلمين، وتتوقـف عجلـة الـدعوة إلى الإصـلاح والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر.

الأمر الذي يتعيّنُ معه ضـرورةُ مضـاعفة الجهـد والوسـع مـن أجـل مناقشـة هؤلاء المتنطعين وإعادتهم إلى الاعتدال وإلى جادة الصواب. وكذا نشر العلم النـافع الصحيح، فهو خير علاج لمداواة مثل هَذه العلل والأدواء.

26- يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير، دار البعث، قسـنطينة (الجزائـر)، 1987 م، ص 41

27- منقذ محمود السقار، التكفير وضـوابطه، رابطـة العـالم الإسـلامي، مكـة المكرمـة، د. ت، ص 111.

8. الحروب والصراعات السياسية

ومن ضروب التحديات كذلك عدمُ الاستقرار في الكثير من المجتمعات الإسلامية، بسبب الحروب والصراعات السياسية على افتكاك السلطة أو الاستئثارِ بها، كما هو الحال في كلٍّ من أفغانستان والعراق والصومال.

ومعلومٌ أن هذه الأوضاع البائسة، لا تنتعشُ فيها الدعوةُ إلى الإصلاح وتربيةُ الناسِ على قيمِ الإسلام الصحيحةِ.

كما أن وسائل الإعلام الأجنبية الراصدة، عندما تتناولُ قضايا وشؤونَ العالم الإسلامي، فإنها تركزّ على نمطٍ معيّنٍ من الأخبار، كأخبارِ الانقلابات والاضطرابات الاجتماعية والاحتجاجات العماّلية، والأزمات السياسية والاقتصادية، وذلك قصدَ المبالغة في تشويه صورةِ الحياة في أقطارِ البلادِ الإسلاميةِ.

ولا شكّ أنّ التمادي في هذا التشويه وتضخيمه يمثّلُ تحدياً واضحاً لمؤسساتنا الدعوية والإعلامية. مما يستوجبُ منها «التواجدَ في أماكن الأحداث في العالم الإسلامي وتغطيتها من منظور موضوعي. وإنشاء وسائلِ إعلامية خاصة كالقمر الصناعي الإسلامي ووكالة أنباء إسلامية.. كما تمثّلُ هذه المعالجةُ المشوّهة لقضايا العالم الإسلامي تحدياً لمؤسسات الدعوة، فواجبها الإسلامي هو التوعية من خلال الوسائلِ الإعلامية المختلفة، والعمل على إيجاد رأي عام إسلامي لكلِّ ما يحدث ويُدارُ في الخفاء، وتنمية روح التعاون بين المسلمين من أجل استردادِ حقوق المسلمين المسلوبة»[28].

9. الإرهاب

يمثّل الإرهابُ وأعمالُ العنف التدميري أحدَ أشهرِ التحديات وأخطرها في طريق الدعوة والإصلاح في المجتمعات الإسلامية في المرحلة الراهنة. والإرهاب كما عرّفه مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي في دورته السادسة عشرة المنعقدة خلال شهر شوال من سنة 1423 هجرية، هو «العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغياً على الإنسان، دينه ودمه وعقله وعرضه،

28- محمد منير حجاب، الدعوة الإسلامية: التحديات والمواجهة، مرجع سابق، ص 130.

ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق والأملاك العامة أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر..».

وبرغم العلمِ بكونِ الإرهاب لا يمكنُ أن يُنسبَ لدين من الأديان، أو ثقافة من الثقافات، أو حضارة مَن الحضارات، أو جنس من الأجناس، باعتباره حالةً مزاجيةً غضبيةً لا تلبث أن تتحول لدى الفرد الذي يمارسه أو الجماعة التي تنخرط في معمعته وشرّهِ، إلى صورةٍ من صورِ (بسيكولوجيا) التدمير الذاتي، إلاّ أن أعداء الإسلام الضائقين بدعوته وقيمه، وجدوا فيه فرصةً ذهبيةً، لتسويقِ أفكارهم وتصوراتهم عن الإسلام، ونعتهِ بأبشع الصفات وأرذل النعوت.

يقول الشيخ الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركي، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي: «وإذا كان الإرهابُ لا يستند على أصول تربطه بمكان جغرافي، أو جماعة بشرية، أو دين أو مذهب أو اتجاه، فإنه لا يمكن أن يرتبط بثقافة إنسانية معينة أو أمة من الأمم. لذلك فإن الإرهاب ظاهرة من الظواهر المقيتة التي تظهر في حقب التحولات الزمنية في بعض المجتمعات الإنسانية، دون أن تنحصر ظواهرُه ومظاهرُه في مكان أو زمان بعينه.

وقد عانى العالم في مختلف حقبه من جرائم الإرهاب، كما ظهرت آفاتُهُ مراراً في بعض الحقب الزمنية في المجتمع الإنساني، إلا أن قدرة الإسلام على علاج هذه الآفة، وتنظيف المجتمع الإسلامي من أدرانها، وتحصينه من أخطارها كانت قدرةً مشهودة وفاعلة»[29].

إن الإرهابيين يوسوس لهم الشيطان فيزيّن لهم أعمالهم الإجرامية المنكرة،

29- إبراهيم نويري (مخاطر الإرهاب على الدين ومصالح العباد)، مجلة الرابطة، رابطة العالم الإسلامي، العدد 526، جمادى الأولى 1431 هـ/ أبريل، مايو 2010م، ص 74.

حتى ليَحسبونها جهاداً في سبيل الله!! اعتماداً على فهمٍ مغلوطٍ لبعض نصوص الشرع الحنيف، ناسين أن النصوص لا تُفهم إلاّ في إطار السياقات الكلية والقواعد الأصولية، تلك التي صاغها علماءُ أصول الفقه، ولا يوجد بين الإرهابيين عالِمٌ واحدٌ، أو مَن يُعتدّ برأيه؛ ولذلك يستحيل أن يبرّرَ أو يؤيدَ أعمالهم الهمجية اللاّإنسانية عالِمٌ أو فقيه أو مفكر مسلم.

وقد ثبت أن البيئات والمجتمعات التي ظهر بين جنبيها الإرهاب الهمجي، تراجعت فيها الدعوةُ وذبلت الأعمالُ الخيرية، ولم يعد للجماهير إقبالٌ على الدعاة والمصلحين، وبهتَ الحماسُ في دراسة القضايا الدينية والتعلّق بأهلِ العلم والاستقامة والصلاح.

10. التخويف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)

استغلت بعض الدوائر المعادية للإسلام والمسلمين في ديار الغرب، ظاهرة العنف والإرهاب، التي تضررت منها أقطارُ العالم العربي والإسلامي، ولم تسلمْ منها بعض الأقطار الغربية، وأخذت تُحيي روحَ العداءِ للإسلام، وتخوّفُ من انسياب دعوته في أوروبا وغيرها من دول الحضارةِ الغربية، وقد عُرفَ هذا النزوع بظاهرة (الإسلاموفوبيا) أي: الخوف والهلع من الإسلام!!!

ولعلّ ما يثيرُ اللوعةَ ويبعثُ على الأسى في هذه المسألة، أن (رجال الدين) المسيحي انخرطوا بقوة وعنفوان في تأجيج أُوارِ هذه النار المستعرةِ، وراحوا يثيرون اللغط حول مَن اقتنع بعقيدة (الجزاء) بدل عقيدة (الفداء).. وقبل حوالي أربع سنوات، أطلق القسيس (جورج جاينزفاين) الذي يعمل سكرتيراً خاصاً وقائماً بأعمال البابا (بنديكت السادس عشر) في الفاتيكان، تحذيراً شديد اللهجة من موجةِ ما أطلق عليه: (أسلمة أوروبا) ... وقد سارع -عقب ذلك التحذير- مركزُ (العلاقة مع الإسلام) التابع إدارياً للكنيسة الكاثوليكية بفرنسا إلى عقد مؤتمر حاشد، ليجيبَ على سؤال جوهري هو: لماذا هذا الإقبالُ الكبير على الإسلامِ دون غيره من الأديان والعقائد؟

ما كان ينبغي على قساوسة مسيحية بولس ورهبانها في أوروبا، أن يساهموا في حملة التخويف من الإسلام.. ولو كانوا على شيء من الحق الذي كانت عليه

النصرانية قبل مؤتمر نيقية (المنعقد في العشرين من شهر مايو أيار سنة 325 م) لظاهروا حركة انتشار الإسلام في بلدانهم، فإنّ كتاب هذا الدين القرآن الكريم يقول عن السيد المسيح ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: 45] ويقول أيضا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: 171] ... لكنهم للأسف يلوذون بصمتِ أهلِ القبور أمام انتشار الإلحاد والشذوذ الجنسي والعلاقات الآثمة، والجرائم المختلفة والحروب الظالمة وترويع الآمنين ونهب خيرات الشعوب بالباطل تحت التخويف بالقوة العسكرية والحصار الاقتصادي، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول والشعوب المغلوبة على أمرها.. إلخ.. إنهم لا يتحركون إلاّ عندما يشاهدون انتشار الإسلام وإقبال الفلاسفة والمفكرين والباحثين والأدباء والفنانين والسياسيين والدبلوماسيين في كلّ بقاع المعمورة على دراسته، والاقتناع بصلاحيته الأبدية للزمان والمكان والحاضر والمستقبل.. إن هذا النزوع يعني بوضوح أن روح بطرس الناسك الموروثة عن نصرانية بولس، ما تزال -مع كلّ أسف- تسري في قلوب أصحاب القرار من ساسة ورجال دين في قارة أوروبا، وفي ديار الغرب بصفة عامة.

وقد أدركت منظمةُ المؤتمر الإسلامي (التعاون الإسلامي حاليا) مدى خطرِ هذه المسألة، وتداعياتها وأثرها على الدعوة الإسلامية، داخل البلدان الإسلاميةَ وخارجها، فوجّهتْ مؤتمرَ وزراءِ خارجيتها المنعقد بباكستان خلال الأسبوع الثالث من شهر مايو أيار سنة 2007 م، إلى الاهتمام بهذه المسألة ودراستها دراسة عميقة مستفيضة. خاصة بعد أن سعتْ الكثيرُ من دوائر الكيد المتربصة بالدعوة الإسلامية، إلى الربط بين الإرهاب وغيره من الشرور وبين الإسلام ذاته[30].

11. الخطاب الإعلامي المضلّل

لعلنا لا نبالغ إذا اعتبرنا الخطاب الإعلامي المضلِّل، الذي يعمل على حجب الحقيقة، كي لا تصل صورة الإسلام الناصعة وأحكامه وتعاليمه العادلة إلى

30- عبدالله الأشعل، قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ط1، 2010 م، ص 141.

الناس والمتلقين عموما، من أخطر وأبشع التحديات التي تقف في طريق الإسلام ودعوته في هذه المرحلة من الزمن.

وهذه مسألة تُعدُّ موضع إجماع واتفاق العاملين في ساحات الدعوة والترشيد والإصلاح. لأن وسائل الإعلام والاتصال ووسائطها وتقنياتها المعاصرة، بإمكانها أن تهدم في وقت قصير كلَّ ما اجتهد الدعاة والمربّون في بنائه ودأبوا على غرسه وإثباته منذ زمن بعيد؛ وأيضا لقدرتها على الحيلولة دون وصول الصورة الصحيحة للإسلام وتعاليمه للجماهير والمتلقين، لا سيما مَن ليس لهم أدنى حظ من الاطلاع على حقائق الإسلام وتاريخه ورجالاته وأعلامه.

وإذا جاز لنا اعتبار التقدّم الذي بلغته الأقمار الصناعية والبثّ الفضائي، من أبرز علامات النبوغ التي تشهد للعقل البشري ولتطوّر العلم في راهن الحضارة المعاصرة، فإنّ ما تبثّه الدول المالكة لهذه الأقمار من سموم ناقعات ضدّ الإسلام، إنما يُدرجُ في سياق أخطر التحديات المعاصرة التي تقف في طريق الدعوة الإسلامية وتعمل على بعثرة جهود الدعاة ومحو مؤثرات هذه الدعوة من النفوس والعقول والأفئدة[31].

ولهذا السبب فإن من المطالب الملحّة للمسلمين، لردّ هذا التحدي، أن تكون لهم أقمار صناعية أو قمر صناعي موحّد، إذْ من شأن ذلك أن يُسهم في تقديم الصورة الصحيحة لحقائق الإسلام وتعاليمه وأبعاده الحضارية، ومن الأهميّة بمكان في هذا الصدد التذكير بجدوى الفضائيات الإسلامية التي تتخصص في الدعوة إلى الإسلام، وذلك بمختلف اللغات واللهجات المنتشرة في العالم، مع التركيز على اللغات الأكثر انتشاراً بين شعوب المعمورة.

خاتمة

بعد عرض هذه التحديات التي تعترضُ سبيل الدعوة إلى الإسلام وإصلاح أوضاع المسلمين، وبناء الإنسان المسلم بناءً تربوياً سليماً يتماشى وقيمَ الإسلامِ

31- ماجد الحلواني، القمر الصناعي الإسلامي: تحدٍّ حضاري وضرورة عصرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1987 م، ص 13.

وتعاليمه السمحة، ليكونَ مؤهلا للقيام بواجبات الاستخلاف والشهود الحضاري، نحاول أن نثبت في خاتمة هذا البحث، المقترحات والتوصيات الآتية:

- ضرورة العمل على جعلِ الدعوة الإسلامية علماً قائما بذاته، على غرار ما فعل المسلمون الأوائل بالنسبة لعلم أصول الفقه، وفقه الفروع، وعلمِ مصطلحِ الحديث.. ورسمِ منهج للدعوة يتّسمُ بالدقّة في التخطيط وفي التنفيذ، والبصيرة في المتابعة، وإيجاد الكوادرِ المؤهَّلة المؤمنة برسالتها إيماناً نابعاً من إرادتها الذاتية المستقلة.

- الداعية في عرفِ الإسلام هو طبيبٌ وصيدلي.. طبيبٌ يُشخّصُ الداءَ، وصيدليٌ يصرفُ الدواءَ. بيد أنّ هذا الأمر لا يتحقق في الواقع إلا إذا أصلحَ الداعيةُ نفسَه أولاً، ثمّ شرعَ بعد ذلك في إصلاح الآخرين على ضوء إصلاحِهِ لنفسهِ. وما يُساعدُ على ذلك أن الإسلام هو بطبيعته دين دعوة وإبلاغ وإصلاح، وأن المسلمِ -بغضّ النظر عن الشأو الذي بلغه من العلم والثقافة- من وظيفته الدعوةُ إلى الإسلام، بسيرتِه وأخلاقه الشخصية أولا، ثم بحسن فهمه لمرامي ومقاصد وتشوّفات وحِكَم تعاليم وأحكام الشرع الإسلامي الحنيف.

- الإسلام في جوهره إصلاحٌ عامٌ منَّ اللهُ به على عباده. والإصلاح قيمة ثابته -بخلافِ وسائله- تقفُ في طريق كلِّ عملٍ فاسدٍ، وتحولُ دون التمكين لكلِّ باطلٍ من العقائد. بغض النظر عن مصدرهما، لا فرق في ذلك إنْ هي صدرتْ عن سابقٍ أو لاحق، وعن حيّ أم ميّتٍ، لأن الحكم على الأعمال لا على العاملين؛ وليس صدورُ العملِ الفاسدِ من سابقٍ بالذي يُحدثُ له حرمةً أو يُصيِّره حُجّةً على اللّاحقين، وإنما الحجّةُ لكتابِ الله وسنّة رسوله ﷺ وأخلاق أسلافنا الصالحين.

وهذه قاعدة جليلة ينبغي استثمارها بعناية في وضع مناهج للإصلاح، تكون شاملةً لكافة مجالات وميادين الحياة في المجتمعات الإسلامية.

- ينبغي على المتخصّصين في الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي أن يستوعبوا جميع الطروحات الفكرية المخالفة، وأن يبلغوا في معرفتها والإحاطة بمراميها أعلى الدرجات، لكي يتمكّنوا بعد ذلك من محاججة كلّ التيارات

الفكرية، فذلك في اعتقادي هو الواجب المعاصر، وهو نفسهُ الذي نهضَ به أسلافُنا الصالحون. ويكون من الأجدى أن تؤطرَ هذه الجهودَ مؤسساتٌ فكريةٌ إسلامية ذات أداء فكري رفيع، كي ينتقل هذا العمل من نطاق الدعوة والجدل في مستوياته الفردية، إلى نطاق الحوار الحضاري، مع أصحاب تلك المنازع والتيارات الفكرية والفلسفية.

- لا بدّ من التذكير الدائم والتأكيد الجازم، على أنّ كلّ محاولة من جهود العمل والإصلاح، التي تستهدف النهوضَ بالأمة الإسلامية وتحسين أوضاعها، يجب أن تكون في قاعدتها ومقاصدها، منبثقةً من مرجعية الأمة الثابتة المكوّنة لهوّيتها، لأن ترابط وحدات الزمن في حياة الأمم يشترط في كلّ محاولة نهوضٍ أن يمتلك آصرة أصيلة قادرة على ربط الحاضر بالماضي، ووصل الراهنً بالسابق.

- على دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي أن يتقصّوا البحث عن أحوال الأمم الأخرى، لعلهم يقتبسون منها ما يوائم حياة أمتهم، كما يتعيّن عليهم أن يعرفوا أسباب ارتقاء الشعوب وعلل سقوطها، ليستعينوا بها في ضرب الأمثلة، ويؤيدوا بها صواب ما تهديهم إليه البصيرة الخالصة، بما يعودُ بالنفع والخير على شعوبهم وأوطانهم وأمتهم.

- يتعيّن على الدعاة والإعلاميين الإسلاميين المعاصرين الكفُّ عن ربط فكرة الإصلاح ببعض الأعلام الأفراد أو الحركات والجماعات. بل ينبغي أن يعملوا على تجديد مضمونها بما يناسب الواقع الإسلامي المعاصر، وذلك يكون برسم برامج واضحة في عملية الإصلاح، تكون نابعة من الإشكالات الموجودة في الواقع، فهذه البرامج -إذا توافرت أسباب نجاعتها وفعاليتها- من شأنها تخفيفُ وطأة التحديات، والارتقاءُ بواقع الحياة الإسلامية وتطلعات المسلمين، إلى نمط يُجسّدُ أخلاقيات الإسلام وخصائصه العامة في إصلاح الأفراد والمجتمعات.

- لقد ثبت بأن الإصلاحَ طريقُه العلم. كما قال الشيخ عبد الحميد بن باديسٍ رحمه الله تعالى « لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنما العلماء

من الأمة بمثابةِ القلبِ، إذا صلح صلحَ الجسدُ كلُّهُ وإذا فسدَ فسدَ الجسدُ كُلُّهُ. وصلاحُ المسلمين إنما هو بفقههم الإسلامَ وعملهم به، وإنما يصلُ إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهلَ جمودٍ في العلمِ وابتداعٍ في العملِ، فكذلك المسلمون يكونون. فإذا أردنا إصلاحَ المسلمين، فلْنُصْلِحْ علماءَهم، ولن يصلُحَ العلماءُ إلا إذا صَلحَ تعليمُهم.. ولن يصلُحَ هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليمِ النبوي في شكلهِ وموضوعهِ، وفي مادته وصورته»[32] فالعلم الصحيح إذن النابع من مصادر الإسلام المعصومة، هو الترياق الناجع في إصلاح واقع المسلمين، والارتقاء به إلى مستويات تجسيد مقاصد الإسلام بكيفية صحيحة.

- من الأهمية بمكان العملُ على تأسيس بعض المراكز والمخابر تكون متخصّصة في رصد التحديات ودراستها، ووضع الخطط والمناهج الكفيلة بمواجهتها والتصدي لها، حفاظاً على تماسك الأمة الإسلامية وقوتها ومنعتها. على أن يكون من صلاحيات هذه المراكز والمخابر دراسة الأسباب والدواعي التي أدت إلى فشل مشاريع الإصلاح الإسلامي خلال المراحل السابقة.

هذا وبالله التوفيق، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام.

والحمد لله أولاً بلا بداية، وآخراً بلا نهاية.

32- عبد الحميد بن باديس، مقتطف من مقال له بمجلة الشهاب، المجلد العاشر، جمادى الثانية 1353 ه، الموافق لشهر سبتمبر أيلول 1934 م.